

اجتهادات أفكار لا تموت

هذا مؤشر جديد إلى أن وهج أفكار كارل ماركس أقوى من أن يطفئها فشل من تبناها بعضها، أو ما وجدوه متماشياً مع مصالحهم منها عندما وصلوا إلى السلطة. كاتب أمريكي يعتبر نفسه ليبرالياً يستهل كتابه الجديد الصادر في مطلع العام الحالي «عصر الثورات: التقدم والتراجع منذ عام 1600» بمقتطفٍ من نداء «يا عمال العالم اتحدوا» الذي كتبه ماركس عام 1848 مع رفيقه فريدريك إنجلز. ولا ننسى أن هذا النداء بيان سياسى، وليس عملاً فكرياً. بيان كتبه ماركس الشاب في وقتٍ مبكر من حياته قبل أن ينكب على أعماله الأهم. اختار فريد زكريا الجزء المتعلق بتشخيص ماركس وإنجلز لطبيعة المرحلة في منتصف القرن التاسع عشر، وتحديد أهم ما ميز عصر البورجوازية عن عصرى الإقطاع والعبودية اللذين سبقاه. وإذا كان فى بيان سياسى، يُفترض أنه مرتبطُ بزمانه بل بلحظته، ما يبقى صالحاً

لفهم ظواهر راهنة، وما يُستعادُ في استهلال كتابٍ يصدر
بعد 176 عامًا، فما بالك بأعمال ماركس الفكرية التي
كتبها بروح المفكر المتفلسف وعالم الاجتماع المثقف
والباحث الاقتصادي المُتعمق، وليس بقلم السياسى
المناضل الذى حلم بفردوسٍ يخلو من الاستغلال
والتهميش والقهر والبطش، وتخيل أن فى إمكان من
يؤمنون بهذه الأفكار أن يبنوه فى كوكبٍ كثر فيه
الأشرار، وقل الأخيار ومن يسلكون طريق الخير. فكان
أن معظم الأخيار الذين تبنوا ما عنَّ لهم من أفكار
ماركس لم يصمدوا فى صراع الخير والشر الذى يحدث
فى داخل كل كائن بشرى، وأخفقوا فى المحافظة على
بذرة الخير لديهم، فانجرفوا فى ممارساتٍ قادتهم إلى
طرق مسدودة أو هزائم تاريخية حُمِلت أفكارُ ماركس
المسئولية عنها، واعتقد كُثر أنها انتهت ولن يبقى لها
ذكر. ولكن الأفكار لا تموت إلا إذا لم تُحفظ. وخيرُ ما
فعله أخيار لم يحافظوا على خير كان فيهم عندما اعتلوا
السلطة أنهم أصدروا طبعاتٍ كثيرةً لمعظم أعمال ماركس
الفكرية، فيما حرص أخيارٌ قلائل بقى الخير فيهم على

حفظ ما لم يُرق لنظرائهم. أما منهج السيد زكريا وتحليله
فلنا عودة إليهما بعد الانتهاء من قراءة الكتاب.